تجارب معلمين

وجهة نظر خاصة:

البحث الإجرائي .. مكانته .. ومميزاته .. ودوره

تغريد باجس عابد

كثيرة هي المقالات التي ناقشت أهمية البحث الإجرائي، كما تم نشر العديد من المقالات في أعداد سابقة من مجلة «رؤى تربوية». أما الآن، فأود أن أناقش الموضوع بمفارقة بسيطة، ألا وهي مدى أهمية البحث الإجرائي من وجهة نظري الخاصة، وذلك من حيث استخدامه لتحسين أداء المعلم وتطويره، أو من حيث أهميته في عملية التعليم والتعلم بشكل عام. وقد بدت أهمية البحث الإجرائي وآثاره واضحة المعالم لي من خلال المساقات التي يتم تدريسها في كلية الدراسات العليا/دائرة التربية بجامعة بيرزيت، ضمن مساق «البحث النوعي»، ومن خلال قراءتي الخاصة المتعلقة بالموضوع.

يعتبر البحث الإجرائي ضرباً من ضروب أسئلة التأمل الذاتي التي تراود المتمرسين أو المشاركين في الحياة الاجتماعية، بما فيها المواقف التعليمية، وذلك من أجل التوصل إلى التعقل والعدل في الممارسات التالية:

أ. أداؤهم وتطبيقاتهم الاجتماعية أو التعليمية.

ب. مدى استيعابهم وتفهمهم لهذا الأداء.

ج. المواقف التي يتم فيها تنفيذ الأداء.

لقد تم توظيف البحث الإجرائي في العملية التعليمية في مجال برامج تطوير المناهج المدرسية، وتخطيط الأنظمة وتطوير السياسات التربوية. ويعمد المشاركون باختيار البحث الإجرائي كوسيلة للمشاركة في صنع القرار بشأن عملية التطوير. لقد أطلق كورت لوين (Kurt Lewin) اصطلاح (action research) أي البحث الإجرائي العام 1944، ولخص العملية بخطوات تبدأ أولاً بالتخطيط، والتوصل إلى الحقائق، ثم التنفيذ. وقد بين لوين أن البحث الإجرائي يعتمد على المبادئ التي تؤدي تدريجياً إلى الاستقلالية، والمساواة، والتعاون، وبالتالي تغيير وتبديل سياسات «الاستغلال الدائم» التي برأيه من الممكن أن تؤذي كل نواحي الديمقراطية (Keeves,1988).

أما برأيي، فأعتقد، كما يعتقد الكثير من مؤيدي هذا النوع من الأبحاث، أن البحث الإجرائي يبنى على الممارسة، حيث أنه يرتبط مباشرة بالتطبيق العملي، والتأمل الذاتي للشخص، كما يقوم الباحثون في هذا المجال بدراسة أنفسهم كمتمرسين أو متعاطين لمهنة ما (practitioners)، حيث يقوم الباحث بطرح أسئلة على نفسه كما يلي:

- لماذا أقوم بعمل ما أقوم به الآن؟
- ما هو موقفي الآن؟
- وبماذا يتصف هذا الشكل؟

إذن، يعتبر البحث الإجرائي أسلوباً إستراتيجياً لمساعدتنا كمعلمين لتفسير نقاط ووجهات نظر خاصة بنا من ناحية تعليمية. ومن جهة أخرى، أعتقد أنه يتم تطبيق البحث الإجرائي على نطاق ضيق مع تدخل في أداء العمل الحقيقي، وكذلك التفحص الدقيق للآثار الذي يسببها هذا التدخل. ومن الجدير بالذكر أن البحث الإجرائي أصبح واسع الانتشار في جميع مجالات الدراسة، وذلك بهدف التطور؛ فيستخدم في العلوم الاجتماعية مثلاً من أجل تشخيص المشاكل وتحليلها، ومن أجل اختيار الفرضيات، وذلك للتوصل للحلول الملائمة. كما يستخدم بشكل جلي أيضاً في مجالات عديدة كالتأمين، والسجون، والإدارة الاجتماعية، وإدارة الأعمال، هذا بالإضافة إلى اعتباره ركيزة أساسية للمعلم في العملية التعليمية.

وبما أنني معلمة لغة إنجليزية، فإني أبدي اهتماماً خاصاً بالبحث الإجرائي- وبطريقة غير مباشرة- بغية تحسين أداء طلابي وتطويره ورفع مستواه، ولذلك، سأقوم في هذه المقالة بتلخيص وجهات نظري حول أهمية استخدام البحث الإجرائي لتطوير أداء المعلم، الذي يؤدي، بالتالي، إلى تطوير العملية التعلمية التعليمية بشكل عام.

أهمية البحث الإجرائي في المدارس

1. يعتبر البحث الإجرائي وسيلة علاجية للمشاكل التي تم تشخيصها بمواقف معينة، كما أنه وسيلة لتحسين أداء الطلبة ورفع مستواهم.
2. هو وسيلة تدريب أثناء الخدمة، وبالتالي يساهم في تزويد المعلمين بالمهارات والطرق التعليمية الجديدة، التي تزيد من قدرتهم التحليلية ووعيهم الذاتي.
3. إنه وسيلة لحقن أنماط إبداعية وإضافة حديثة للتعلم والتعليم في نظام قائم وتقليدي يردع في العادة التغير والإبداع.
4. إنه وسيلة لتحسين التواصل البسيط بين المعلم المتمرس والباحث الأكاديمي، ووسيلة لمعالجة فشل البحث التقليدي، وذلك بهدف التوصل لوصفات علاجية أكثر دقة (Cohen &Manion,1994).
5. يستخدم البحث الإجرائي حينما يتطلب الأمر اكتساب معرفة من نوع محدد في مشكلة محددة، وفي موقف محدد. فعلى سبيل المثال، يستخدم لاختيار أي من الطرق هي الأفضل في العملية التعليمية: الطرق التقليدية أم التعلم التعاوني؟

وبصفتي معلمة للغة أجنبية، فإنني أواجه، كما يواجه الكثير من زملائي وزميلاتي، صعوبة بالغة في رفع مستوى الطلبة وتحسين أدائهم في المهارات اللغوية. وكوننا نعمل في مدينة تعد تجمعاً مركزياً يتوافد عليه الطلبة من قرى مجاورة، فإننا نواجه ضعفاً متأصلاً ربما يعود لأسباب عديدة منها: انحدار الطلبة بخلفيات ثقافية، واجتماعية، وعرقية متنوعة، وتأسيس لغوي متواضع، هذا بالإضافة إلى القدرات العقلية المتفاوتة التي يكون لها مجتمعة أكبر الأثر على تحصيلهم الدراسي. وكوننا نعي تماماً هذه الفروق أجد من الضروري أحياناً إجراء مثل هذا البحث بالتعاون مع الزملاء في المدرسة أو في المهنة. وهنا يمكن أن نقوم بترجمة

أفكارنا إلى إجراءات عملية داخل الغرفة الصفية. وهنا أعتبر نفسي وزملائي متمرسين وباحثين معاً، حيث نعمل على بلورة الأفكار النظرية وتطبيقها عملياً.

ومن خبرتي كمعلمة أيضاً، أتفق مع مؤيدي البحث الإجرائي على أن هنالك نواحي متعددة في العملية التعلمية التعليمية، حيث يمكن استخدام البحث الإجرائي لتسهيل عملنا كمعلمين. أذكر منها ما يلي:

1- طرق التدريس: مثلاً استبدال الطرق التقليدية بأسلوب الاكتشاف.
2- استراتيجيات التعلم: تفضيل نظام التعلم التكاملي/الشمولي على أسلوب تعليم الموضوع المنفرد (single-subject style).
3- طرق التقييم: إجراءات لتحسين طرق التدريس بهدف التقييم المستمر للأداء.
4- الاتجاهات والقيم: وذلك بهدف تشجيع الاتجاهات الإيجابية بالعمل، أو بهدف تعديل قيم الطلبة في ناحية ما من مناحي الحياة.
5- تطوير المعلمين أثناء الخدمة، وذلك بتطوير مهارات التعليم، وتحسين طرق التعليم، والقدرة التحليلية وتعميق الوعي الذاتي.
6- الإدارة: أي زيادة فاعلية النواحي الإدارية فيما يتعلق بالحياة المدرسية.

إيجابيات العمل التعاوني في البحث الإجرائي

يقول المثل الدارج باللغة الإنجليزية (Two heads are better than one)، وما أعنيه في هذا السياق هو أن العمل التعاوني كمعلمين وباحثين له إيجابيات كثيرة مقارنة بالعمل المنفرد، وذلك للأسباب التالية:

1- يمكن تحقيق القليل من الإيجابيات إذا اتكل الشخص فقط على نفسه بتغيير أفكاره وأدائه.
2- العمل التعاوني يشتمل على أفكار وتوقعات جميع المشاركين في الموقف التعليمي.
3- التعاون يمكن أن يؤدي إلى آثار ذات فائدة تعود على المعلمين، والطلبة، كما يؤدي إلى تحسين الخدمات وظروف الموقف وأدائه.
4- يمكن ترجمة التعاون ونتائجه إلى أداء وتطبيق أعمق من قبل المعلمين، والمديرين، والطلبة، وأفراد المجتمع المحلي.
5- وأخيراً، يتم تحسين نوعية التعلم والتعليم.

كيفية تعاون المعلمين والباحثين في المدرسة

نعي جميعاً أن الأفراد بطبيعتهم مختلفون، حيث يتمتع كل واحد بشخصيته الخاصة، ومعلوماته ومهاراته التي تميزه عن غيره. وكذلك الحال بالنسبة للمعلمين، حيث يمتلك جميع المعلمين مهارات خاصة قد تساهم في إنجاز البحث. ويمكن أن يقوموا بتعريف وتحديد مهاراتهم وقدراتهم الخاصة، كما يمكنهم لعب أدوار، وتنويع الإجراءات العملية. فيمكن أن يقوم البعض بجمع البيانات وتفحصها، ويقوم البعض الآخر بتسجيل عدد من الدروس، ويقوم الباقون بتصميم الاستمارات، وإجراء المقابلات، ... وهكذا.

ومن جهة أخرى، يجب على المعلمين أولاً تحديد مشكلة الدراسة قبل تصميم الأسئلة وجمع البيانات. كذلك عليهم تحديد لقاءات لتسهيل مهام بعضهم البعض، والمساعدة في توضيح تقنيات البحث كطريقة جمع المعلومات، وتبادلها وتحليلها. كما يمكن أن يؤدي هذا التعاون إلى الحد من العوائق والقيود المفروضة على المعلمين. فمثلاً، نجد أن بعض المدارس معدّة بالأجهزة الصوتية والمرئية الحديثة، بينما البعض الآخر ينقصه مثل هذه المعدات. وعن طريق التعاون، يمكن أن يسد المعلمون المتعاونون النقص الكائن في مدرسة أخرى.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، عندما كنت أقوم بإجراء بحث ما من أجل الدراسة، كانت زميلاتي تطرح الأسئلة والأفكار وتتحلى بعضهن بالمثابرة وحب الاستطلاع لمعرفة نتائج البحث، وذلك بهدف التوصل لحلول لمعالجة ضعف الطالبات في اللغة الإنجليزية.

وأنا أعتبر هذا جزءاً من التعاون الجلي، حيث أن نتائج معلمة يمكن أن تطبق من أجل مصلحة المدرسة ككل. وتطبيقاً لهذا الكلام، قمت وزميلاتي بالتعاون في هذا المجال لمعالجة ضعف الطالبات في مهارة الإنشاء. وعن طريق التعاون ضمن لجنة المبحث الواحد ناقشنا المشكلة وحددنا أسباب الضعف التي تلخصت بعدم قدرة بعض الطالبات على صياغة الجمل الصحيحة، وعدم إدراك البعض لكيفية ترتيب الأفكار وتسلسلها في فقرات، أو كيفية كتابة الرسائل بأنواعها، وقد اتضح لنا أيضاً أن عدداً من الطالبات لم يعتدن على كتابة المواضيع الإنشائية في مدارسهن السابقة. ولحل هذه المشكلة اخترنا موضوعاً مشتركاً قمنا بتجربته على الطلبة في الفترة نفسها، حيث اخترنا موضوعاً جاهزاً يحتوي على أخطاء لغوية متنوعة منها: أخطاء إملائية ونحوية، وطريقة كتابة الأسماء باللغة الانجليزية ... الخ. ولزيادة تركيز الطالبات، لجأنا إلى تحديد الأخطاء من كل نوع وعددها. وبعد ذلك قمنا بتوضيح الفكرة للطالبات، وتم تقسيمهن إلى مجموعات مع تحديد المهام وتوزيع الأدوار، آخذين بعين الاعتبار كل فرد في المجموعة المشاركة. ومن أجل التأكد من ذلك، تم توزيع المهام بشكل كتابي، وتعيين ما أنجزه كل فرد وإعادته للمعلمة لتقييم الموضوع.

وقد كان للمعلمات الدور الأكبر بالمراقبة عن بعد مع إسداء المشورة والنصح إذا ما تطلّب الأمر ذلك. وقد لوحظ مدى زيادة دافعية الطلبة، حيث ازدادت شدة المنافسة من أجل إنهاء الموضوع بأقل أخطاء ممكنة. هذه كانت مجرد البداية، وبعدها عمدنا إلى حث الطالبات على الكتابة مع التركيز على المواضيع التي تتعلق باهتمام الطالبات وبخبراتهن الخاصة بهدف تفعيل أفكارهن بشكل موضوع إنشائي. وقد لقي هذا الأسلوب اهتمام وإعجاب الطالبات المتدربات في مدرستنا من جامعة بيرزيت، حيث قمن بتطبيق هذا الأسلوب، ما حدا ببعض الطالبات إلى التطرق للمواضيع المطروحة على الساحة في ذلك الوقت، ومنها موضوع الجدار الفاصل، و(Super Star) أو الكتابة عن أحد المناضلين الذين استشهدوا، أو عن أحد الكتّاب وهكذا.

أياً كانت المواضيع فالهدف الأهم كان تشجيع الطالبات على الكتابة، كلٌّ حسب قدراته ومستواه. وقد عمدنا لاختيار المواضيع الجيدة لقراءتها أمام الطالبات، الأمر الذي زاد من دافعية الطالبات وإبراز قدراتهن. وبكتابهما (Cohen &Manion,1994) اقرأ «إن دور المعلمين المتعاونين كباحثين يعتبر دوراً مختلفاً باعتبارهم عوامل من أجل التغيير الخارجي، حيث يعملون على التسهيل أكثر من الضبط. كما يركز البحث على أفكار المعلمين وتصوراتهم للوسائل والغايات، ويساعدهم في توضيح أفكارهم وتعميقها من خلال المحادثة والحوار».

ميزات البحث الإجرائي في عملية التعليم والتعلم مقارنة بالطرق التقليدية

1. إنه إجراء فوري مصمم لمعالجة مشكلة محسوسة في الغرفة الصفية، حيث يستطيع المعلمون مراقبة الخطوات على فترات زمنية متفاوتة، وباستخدام تقنيات متنوعة، كالمقابلات، والاستمارات، وأسلوب المشاهدة التي -بالتالي- يمكن ترجمتها إلى تغيرات مباشرة لتحقيق الفائدة طويلة المدى.

2. يهدف إلى تحسين أداء كل من المعلمين والطلبة، حيث يمكن للمعلمين تغيير نمط توجهاتهم وسلوكهم عن طريق التعاون المشترك.
3. كونه يتميز بالمرونة والتكيف مع المواقف، فإن البحث الإجرائي يعتبر وسيلة ملائمة بحقل التربية والتعليم، فيما يتعلق بتغير اتجاهات المعلمين وممارستهم نحو الخلفية المتعارف عليها بشان المعيقات المتعلقة بالمصادر المهنية في المدرسة.
4. يرتكز البحث الإجرائي على البيانات السلوكية؛ وهذا يعني أن البيانات التي تم تحليلها واختبارها ومن ثمّ تقييمها يجب تطبيقها في الغرفة الصفية كأساس للتقدم.
5. إن التقنيات المستخدمة لاستخراج الإثباتات والأدلة فيما يتعلق بالممارسات الصفية، والتقنيات المستخدمة بعملية تحليل وتفسير الأدلة تماثل التقنيات التي يتم توظيفها من قبل الباحثين في «دراسة الحالة». وهذا يعزى إلى أن موضوع أو هدف البحث عبارة عن أعمال أو ممارسات تطبيقيه، كما أن وجهات النظر والظروف تجعل هذه الممارسات أكثر معنى وأهمية: أي أن مواضيع البحث الإجرائي لا يغدو فقط مجرد سلوكيات.

قصور البحث الإجرائي

من خلال قراءتي بهذا السياق ومن خلال النقد الذي يوجه لهذا النوع من الأبحاث، نستطيع أن نستخلص ما يلي:

1. إن البحث الإجرائي لا يتمتع بالجدة أو الإثبات العلمي الدقيق. أي أن هدف البحث الإجرائي يقتصر غلى معالجة موقف معين، على نقيض الأسلوب العلمي الذي يمتد إلى أكثر من كونه فقط حلاً لمشاكل عملية.
2. يتميز البحث الإجرائي بكون العينة محددة وغير تمثيلية، أي تتعلق بموقف محدد وضمن مواقف وظروف تعليمية محددة قد لا تكون متشابهة مع ظروف أخرى.
3. يتمتع البحث الإجرائي بقليل من الضبط فيما يتعلق بالمتغيرات المستقلة.
4. لا يمكن تعميم نتائج البحث الإجرائي دائماً لأنها يمكن أن تكون محدودة بالبيئة التي تم تنفيذ البحث فيها.

تقييم البحث الإجرائي

على الرغم من قصور البحث الإجرائي في بعض النواحي المذكورة أعلاه، فأنا اعتقد أنه يعتبر نوعاً من الأبحاث التربوية التي تفرض ضبطاً على عمليات الإصلاح التربوي، وذلك من قبل المشاركين في هذه العمليات. وبالتالي، تعتبر هذه ميزة لصالح البحث الإجرائي كونه يتيح المشاركة بعملية الضبط بشكل تعاوني بين مجموعات المعلمين، والطلبة، والإداريين، أو حتى ذوي الطلبة أنفسهم. وبالفعل، فقد قام الباحثون الإجرائيون بدراسة سلسلة من التطبيقات العملية عن طريق البحث الإجرائي. ففي دراسات تتعلق بأسلوب التعلم عن طريق الاكتشاف، توصل الممارسون إلى إدراك جلي يثبت أن استخدامهم لاستراتيجيات خاصة بطرح الأسئلة من شأنها أن تبقي على اعتماد الطلبة على سلطة المعلم أكثر من كونها تخلق ظروفاً تشجعهم على الاستقلالية والعمل الذاتي.

وكذلك فالدراسات المتعلقة بإجراءات التقييم ساعدت المتمرسين على إدراك أن المفاهيم المتعلقة بالقدرة والتحصيل يمكن أن تثبت فشل الطلبة، أكثر من كونها تخلق ظروفاً للتعلم المتقدم. وكذلك، فإن الدراسات المتعلقة بالتعلم والتعليم في المراحل العليا التي تم إجراؤها بالتعاون مع المعلمين والطلبة ساعدتهم على مراجعة علاقاتهم في مجال العمل، وذلك من أجل تحقيق طموح مشترك وبشكل أسمى وأكثر شمولية. وهذا بدوره يثبت أنه يمكن تطبيق البحث الإجرائي على أي موقف تعليمي؛ سواء أكان ذلك داخل الغرفة الصفية أم في المدرسة، وذلك من أجل تحقيق التغيير والتطور والعلاج اللازم للموقف.

ومن هذا المنطلق، فإني أؤيد رأي (Stenhouse) القائل إن «البحث الإجرائي يجب ألا يساهم فقط في الممارسة، إنما في بلورة نظرية في التربية والتعليم تكون سهلة ومتوفرة لمعلمين آخرين» (Cohen &Manion,1994).

الصعوبات أو المشاكل التي تعيق القيام بالبحث الإجرائي في المدرسة

نشعر كمعلمين بالتردد من محاولة القيام بأبحاث في المدارس، وذلك بسبب ضيق الوقت والعبء الوظيفي، وصعوبة التواصل مع المعلمين، وعدم التدريب أو الوعي الكافي فيما يتعلق بالنشاطات البحثية، وكيفية إجرائها، والحصول على النتائج، وتحليلها واستنتاج الحلول والتوصيات. وأعتقد أنه يمكن أن تعمد وزارة التربية والتعليم إلى تزويد المعلمين بالطرق، والنصائح، والاستشارات في هذا المجال، كما يمكنها توفير الوقت المناسب لإفساح المجال للمعلمين بالمشاركة.

كما أعتقد أن ذلك يعتبر تحدياً مرتبطاً بكمية ونوعية البحث المشترك بين المعلمين والقائمين على الكليات الذي يمكن تفعيله بطرق عدة أذكر منها ما يلي:

1. أن يتم تقدير ومكافأة هذا النوع من الدراسة ضمن المؤسسة نفسها.
2. أن يتم تزويد الهيئات التدريسية بالأدبيات المتعلقة بالبحث والمهنة، وبالتسهيلات التي من شأنها أن تشجع التربويين على اللقاء والتحاور لحل مشاكلهم.
3. أن يتم تزويدهم بالخبرات فيما يتعلق بطرائق وإجراءات الأبحاث، وقد يتأتى ذلك عن طريق التعاون بين مديريات التربية بكافة محافظات دولتنا الفلسطينية، وبين مؤسسات تعنى بهذا النوع من الأبحاث، كمركز القطان للبحث والتطوير التربوي على سبيل المثال لا الحصر.
4. أن تسمح للمتدربين من الهيئات التدريسية ذوي التوجهات التجريبية نحو العمل، الذين يملكون الرغبة بإجراء البحث بهدف التطوير.
5. أن يتم تزويدهم بالخبرة الملائمة ببرامج الدراسات العليا (الدكتوراه) الخاصة بطرق البحث الإجرائي التعاوني» (Good, 1972).

وبرأيي فإنه على الرغم من كل الانتقادات المذكورة أعلاه، أعتقد أن البحث الإجرائي وبكل ما يتمتع به من مؤهلات قوية يمكن أن يعوض النقص أو الضعف بقوته العلمية، وقد أصبح يطبق في المدارس على نطاق واسع ومكثف إلى جانب كونه أكثر انفتاحاً وملاءمةً للمواقف بأقل خصوصية.

تغريد باجس عابد – معلمة لغة انجليزية في مدرسة الماجدة وسيلة/بيرزيت

References:

- Cohen, Louis & Manion, Lawrence (1994), Research Methods in Education.4th ed. London and New York. Routledge.
- Good, Carter(1972), Essentials of Educational Research, and Design. 2nd ed. Englewood Cliffs N. J.: Prentice Hall, Inc
- Keeves, John, ed (1988), Educational Research, Methodology, and Measurement. An International Handbook. NewYork: Pergamon Press.